المحاضرة التاسعة: الالتزام في الأدب

1-مقدمة:

كثيرا ما يشـير مصـطلح الإلتزام إلى البعد الأخلاقي والتربوي، حيث يكون الشـخص بموجبه ملزما على القيام بواجبات معينة لأجل غاية معينة، يعمل لها ولا يتخلف عن أدائها. وقد وردت الكلمة في معاجم اللغة العربية للدلالة عن معنى اللزوم والوجوب، ففي لسان العرب نجد: " "لزم الشـــيء يلزمه لزما ولزوما ، ولازمه ملازمة ولزاما ، والتزامه ، وألزمه إيّاه فالتزمه ، ورجل لُزمة يلزم الشيء فلا يفارقه. واللّزام : الملازمة للشيء والدوام عليه ، والالتزام الاعتناق". والمعنى ذاته تقريبا في القاموس المحيط: "لزم الشـــيء: ثبت ودام، لزم بيته: لم يفارقه، لزم بالشـــيء : تعلّق به ولم يفارقه، التزمه: اعتنقه، التزم الشـــيء : لزمه من غير أن يفارقه ، التزم العمل والمال : أوجبه على نفسه".

2-الدلالة الاصطلاحية للالتزام:

أما بالعودة إلى معجم المصطلحات الأدبية نجد الالتزام يدل على تسخير المبدع أدبه وموهبته لخدمة قضـية معينة، بحيث يكون إلى جانب المتعة والجمال رسـالة وهدف تربوي يسعى لبلوغه: "هو اعتبار الكاتب فنّه وسيلة لخدمة فكرة معيّنة عن الانسان ، لا لمجرّد تسلية غرضها الوحيد المتعة والجمال"

فإذا ربطنا الالتزام بالأدب – وهو معرض حديثنا- فإننا سـنتحدث عن "أدب الالتزام"، كظاهرة أدبية ظهرت في الشـعر العربي الحديث، حيث ارتبطت بظهور الثورات التحررية في الوطن العربي الذي كان يرنح تحت وطأة الاستعمار، فكان لزاما أن يسخر الشعراء والأدباء أقلامهم لخدمة القضـية الرئيسـية المتمثلة في التحرر من أغلال الاسـتعمار الغاشـم. والأدب الذي لا يعبر عن تطلعات مجتمعه ويدافع عنها باستماتة هو أدب متواطئ مع الآخر الغاصب

– على حد تعبير ســـارت– الذي يقول: "مما لاريب فيه أنّ الأثر المكتوب واقعة اجتماعيّة، ولا بدّ أن يكون الكاتب مقتنعا به عميق اقتناع ، حتى قبل أن يتناول القلم . إنّ عليه بالفعل ، أن يشعر بمدى مسؤوليته ، وهو مسؤول عن كلّ شيء ، عن الحروب الخاسرة أو الرابحة ، عن التمرّد والقمع . إنّه متواطئ مع المضـطهدين إذا لم يكن الحليف الطبيعي للمضـطّهدين". فسارتر يشير إلى الدور الكبير الذي تلعبه الآداب في تحديد مصير المجتمعات.

إن الحديث عن التزام الفن بقضـايا المجتمع لا يعني بتاتا السـقوط في مهاوي الذهنية المجردة المباشـرة والسـرد الجاف للأحداث، بحجة طغيان الجانب الموضـوعاتي، وقد حاول النقد الحديث ضـــبط حدود هذه القضـــية بإيلاء أهمية موازية للناحية الفنية الجمالية، بحيث تمتزج وتتحد أحاسيس المبدع مع أحاسيس جماعته، "فالفن يستطيع تخصيب الكلمة لتبلغ نماءها في حقل المجتمع، معتمدا على الإحاطة باختلاجات الوجدان الجماعي، وهو يجعلها تتسـرب داخل أسـوار الذهول الفني، محافظة على وعيها وتحديقها نحو قضـايا العصـر(...) لتنطلق في فيض إنســـاني تتوحد فيه أعماق الفنان واعماق الآخرين في لحظة زمنية، حيث يتوالى انهمار صوره الواعية للأشياء عن طريق تجسيدها وصقلها وربطها بالخط الفني"

وهكذا يصبح الأدب انطلاقا من المنظور السابق، مرآة للعصر وترجمانا صادقا لهمومه وقضاياه، وصياغة ذلك في ثوب حضاري يناسب الإطار الحضاري والثقافي الذي يوجد فيه، ومعطيات المرحلة التي يعيشـــها. كما يجد نفســـه (أي الأدب الملتزم) مضـــطلعا بواجب درء الأفكار البالية ومحاربتها عن طريق كشفها للجمهور المتلقي، وفضح زيفها وهشاشتها، وتبيين دورها السـلبي في أداء الرسـالة الحضـارية للشـعوب، وفي الصـورة المقابلة العمل على إعلاء الكلمة الهادفة الخادمة لتطلعات وآمال الشعوب، وتقوية روابط الاتصال بين المبدع وجمهوره، "وحينذاك يمحي تماما ذلك المزعم الخطير أن الأديب ليس سـوى مسـلاة، ويدرك الجمهور أنها لا يذهب إلى المسرح أو يقرأ قصة لمجرد قتل الوقت او التسلية، وذلك يطول مرانه على

رؤية الأعمال الأدبية الجادة العميقة، وبحسن قيام النقد الأدبي بدوره في تنوير الأفكار وتعميق الثقافة الأدبية"، وهكذا يتضح أن الأدب لا يقتصر فقط على المتعة الجمالية بل يتعداها إلى الفائدة العلمية، ولا تعارض أو تناقض في ذلك، بل إن تعميق المتعة مرتبط بالفائدة التي يجنيها المتلقي بواسطة تذوقه للمعاني التي يحصَلها عن طريق الصياغة الأدبية الراقية.

3–قضية الالتزام الأدبي في النقد العربي الحديث:

نالت قضية الالتزام حظا وافرا من الدراسات النقدية العربية الحديثة، ومن عوامل بروزها الاحتكاك الثقافي بالفكر الغربي عموما والنقدي خصوصا، فالفكر الماركسي كان لو دور كبير في توجيه الأدب إلى خدمة قضايا مجتمعه "وعليه يكون الالتزام التزاما نابع من الذات بدون فرض او بدون إملاء أو أحكام، بل يقوم على بداهة أن الكاتب جندي سلاحه الكلمة، والجندي لا يقف بسلاحه كيفما اتفق بل يسدد نحو أهداف مقصودة "[1].

لقد غذت الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي كان يعيشها الوطن العربي آنذاك فكرة الالتزام في الأدب، لاسيما إذا عرفنا أن النفس الشاعرة أكثر إحساسا من غيرها بآلام وطنها الذي كان يرنح تحت وطأة الإستعمار ويعيش البؤس والشقاء في أبشع صوره، فكان أن سخرت أقلام الأدباء والشعراء لخدمة قضايا أوطانهم من خلال وجدانهم الذاتي وانصهارهم داخل تفاعلات المجتمع. ونذكر من هؤلاء أحمد شوقي وحافظ إبراهيم وإبراهيم ناجي وغيرهم، لكن ما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد هو أن تمثلهم لمبادئ الالتزام لم يكن بصورة كلية، بل عددوا في رؤاهم وتوجهاتهم وتزاحمت الألوان في أعمالهم، ولعل مرد ذلك إلى رواسب التقاليد الفنية الموروثة التي لم تطهر منها الإبداعات بشكل كلي وشامل.

وبصرف النظر عن حجم ومدى التزام الاديب بقضايا أمتك، فقد كانت هناك نماذج رائعة خلدها التاريخ لأقلام دافعت عن أوطانها ووقفت شامخة في وجه الظلم والاستبداد، من ذلك نذكر هذه الأبيات لخليل مطران:

شردوا اخيارها بحرا وبرا ***واقتلوا احرارها حرا فحرا

انما الصالح يبقى صالحا ***اخر الدهر ويبقى الشر شرا

كسروا الاقلام هل تكسيرها ***يمنع الايدي ان تنقش صخرا

قطعوا الايدي هل تقطيعها *** يمنع الاعين ان تنظر شررا

اطفئوا الاعين هل اطفاؤها ***يمنع الانفاس ان تصعد زفرا

اخمدوا الانفس هذا جهدكم ***وبه منجاتنا منكم فشكرا

فخليل مطران الشاعر الثائر على كبت الحريات وتقييدها في مصر، يجسد ثورته ومشاعره الداخلية في أبيات تملؤها النخوة وتفيض بها عزة وكرامة. تلك هي الحرية التي آمن بها مطران وأصدقاؤه، وذاك هو الالتزام الذي حمل رايته شعراء شباب آمنوا بقضايا اوطانهم وجسدوها في روائع فنية خلدها التاريخ، وهم إن فعلوا ذلك فـ "استجابة لمشاعرهم، وتعبيرا عن احساسهم بالجمال الذي يجدونه في الحق والخير والمنفعة والفضيلة التي يحسون بسموها وبدلالتها على نبل اصحابها وباثرها في سعادة الافراد والجماعات ولم يكن الادباء بمناى عن هذه المعاني الكبيرة الكريمة في احسن جنس وفي اي زمان"

وهكذا تتغير توجهات الأدباء والشعراء حسب العصور، وعادة ما يكون الوطن المحفز الرئيسي لانعطافة الشاعر وارتدائه ثوب الوطنية، فها هو نزار قباني من شعر الحب والمراة إلى شعر الوطن، حيث نجده يقول: "يا وطني الحزين حولتني بلحظة من شاعر يكتب شعر الحب والحنين، لشاعر يكتب بالسكين"، فقد كانت نكبة 1967 التي عاشها مر بها الوطن العربي منعرجا حاسما في تاريخ تجربته الأدبية، فمن عالم النساء إلى هموم الوطن.

4–خاتمة:

وصفوة القول في هذا العنصر أن التزام الفنان بقضايا مجتمعة وتسخير قلمه ليعبر عنها، لا ينقص إطلاقا من قيمة أدبه ولا يقلل من تأثيره، لأنه سيلف فكرته بوشائج عاطفته الأدبية الملتهبة، وشحناته الشعورية القوية، ليعيد تشكيلها من جديد ، في قالب فني مؤثر.

5–مراجع مفيدة يمكن للطالب من خلالها التوسع في محاور المحاضرة:

_محمد عزام: النص الغائب، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001.

_تزفيطان تودوروف: الشعرية، دار توبقال للنشر، المغرب، 1990.

_عبد الحق بلعابد: عتبات، جيرار جينات من النص إلى المناص، بيروت، لبنان.

_عبد الملك مرتاض: نظرية النص الأدبي، دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر، 2007.